الباب الرابع

عصور التاريخ

حدودها الزمنية وأهم سماتها الحضارية

وتأثير ذلك على المنهج

- في استمرارية التاريخ
- العصور القديمة.
- بعض الأحداث الهامة في التاريخ القديم.
- العصور الوسطى.
- بعض الأحداث الهامة في التاريخ الوسيط.
- التاريخ الحديث.
- من أهم الأحداث والسمات الحضارية للتاريخ الحديث.
- التاريخ علم حي.
- أمناطق بلا تاريخ؟!.
- العصر والمنهج.

حاول المؤرخون وضع علامات على مسيرة الزمن، على نحو مانضع علامات على الطريق الطويل لتبيان المناطق الحضرية الهامة أو للدلالة على المسافة التي انصرمت، لكن هذه العلامات على الطريق لا تعني انقطاعه، فالطريق منساب مستمر، وهذه مجرد علامات. وإذا كان وضع العلامات على طول الطريق أمراً واضحاً لأنه مادي - أي الطريق والعلامة، فإن تقسيم مسيرة الزمن أو مسيرة التاريخ أمر صعب لأن مسيرة الزمن أمر معنوي. ولأن الانتقال من عصر إلى عصر أو من مرحلة تاريخية إلى مرحلة تاريخية أخرى أمر لا يتسم بالفجاءة وإنما يتم هذا التغير هينا لينا وئيدا.

ومع هذا فإن تقسيم التاريخ إلى عصور أمر لازم وضروري أو لنقل إنه مسألة لابد منها لأغراض عملية إذ من الصعب أو المستحيل أن يتخصص الباحث أو المؤرخ في التاريخ كله، كما أن لكل مرحلة سماتها الخاصة ولونها الحضاري، بل إن لكل مرحلة أو عصر تاريخي أدواته البحثية المتميزة نوعا ما عن الأدوات البحثية للعصور الأخرى . لكل تلك الأسباب كان حتما أن يفكر الباحثون في تقسيم التاريخ إلى عصور.

ومع هذا التقسيم يجد الباحث في مرحلة تاريخية أو عصر تاريخي نفسه مضطرا في كثير من الأحيان للرجوع إلى مصادر المرحلة السابقة أو العصر السابق لتتبع جذور ظاهرة أو معرفة ظروف نشأتها «فمثلا لكي نفهم نظام الضرائب في العصر الحاضر لابد من الرجوع إلى أصولها في الدولة الإسلامية وفي كتب الخراج.. ولكي نفهم نظام انتقال الملكية العقارية في العصر الحديث في أوروبا لابد من الرجوع إلى أصول هذا النظام وصوره في العصر الإقطاعي في القرن الثالث عشر للميلاد..»[1]

لقد بدأت العصور التاريخية منذ أن عرف الانسان الكتابة وكان هذا من حوالي ٣٠٠٠ سنة قبل الميلاد، وماتزال هذه البداية قابلة لتمتد صعدا في الزمن كلما نمت أساليب المعرفة

(١) طرخان، ابراهيم علي : مدخل إلى علم التاريخ. مذكرة مطبوعة على الاستنسل ص ٤٢.

التاريخية وعاونتها الأساليب المنبثقة عن التطور العلمي. فواقع الأمر أن تقسيم التاريخ البشري قسمين كبيرين هما العصور التاريخية وعصور ما قبل التاريخ لا يعتمد فقط على اتخاذ معرفة الإنسان الكتابة كحد زمني للفصل بين الحقبتين، وإنما يعتمد بالإضافة لذلك على أن كم المعلومات المتوفر لدينا عن عصور ما قبل التاريخ قليل لا يتيح لنا صياغة عامة للحياة والحضارة في ذلك العصر. فإذا ما تطور العلم التكنولوجي وقد أصبح من العلوم المساعدة للتاريخ - خاصة التاريخ القديم - وما قبل التاريخ باستخدام الكربون المشع، في تحديد عمر الأثر وما إلى ذلك، نقول إذا ما تطورت أساليب البحث التاريخي على النحو المشار إليه وأصبح في إمكاننا أن نحصل على تفاصيل ثرة ومعلومات وافرة عن هذه الحقب القديمة، وقتها سيمتد العصر التاريخي صعدا في الزمن وقد يبدأ من ٤٠٠٠ قبل الميلاد أو قبل ذلك. أما في ظل المعلومات المتوفرة الآن فان المؤرخين يميلون إلى تقسيم العصور التاريخية إلى ثلاثة، وإن اختلفوا قليلا في تحديد بداياتها والنهايات:

١ - العصور القديمة أو التاريخ القديم، ويبدأ تقريبا من ٣٠٠٠ ق.م. حتى ٤٧٦ الميلاد، ذلك أن القسم الغربي من الامبراطورية الرومانية قد سقط في هذا العام على أيدي البرابرة، وهناك من يفضل جعل سنة ٣٩٥ للميلاد حدا زمنيا تنتهي عنده العصور القديمة وهو العام الذي انقسمت فيه الامبراطورية الرومانية إلى شرقية عاصمتها القسطنطينية[١] وغربية عاصمتها رافنا في الشمال الشرقي لإيطاليا[٢]. ولا يختلف الوضع كثيرا في منطقتنا العربية والإسلامية فسنة ٥٧١ هي نهاية التاريخ العربي القديم باعتبارها سنة ولادة الرسول محمد عليه السلام أي أن نهاية التاريخ العربي القديم لم تتأخر إلا أقل من مائة سنة بالنسبة لنهاية العصر التاريخي القديم في أوروبا.

---

(١) ظلت الامبراطورية الرومانية الشرقية التي عرفت بالبيزنطية بعد سقوط الامبراطورية الرومانية الغربية بأكثر من ألف عام ثم انتهت على يد الفاتح العثماني محمد الفاتح بسقوط القسطنطينية ١٤٥٣م.

(٢) تم إحياء هذه الإمبراطورية الرومانية الغربية بعد ذلك في العصور الوسطى بتتويج شارلمان امبراطوراً على روما [illegible]

انظر : دالفيز، هـ. و : شارلمان. ترجمة الدكتور السيد الباز العريني ص ١٦٧ - ١٨٠.

وقد شهدت العصور القديمة حضارات زاهرة نذكر منها[1]

(أ) الحضارة السومرية (من ٣٦٠٠ ق.م إلى ٢٣٥٧ ق.م تقريبا) وحققت هذه الحضارة ازدهارها في العراق القديم «ميزو بوتاميا» حوالي سنة ٣١٠٠ ق.م. وبدأ المؤرخون في تسجيل وقائع تاريخهم، وقد اكتشف الباحثون وجود بعض الكتابات السومرية الأدبية تسبق تأليف الإلياذة بحوالي ألف سنة.

(ب) ولقد انتقلت الحضارة السومرية إلى بابل في الحوض الأدنى لميزو بوتاميا (العراق القديم) واستمرت هذه الحضارة البابلية إلى سنة ٦٧٩ قبل الميلاد، وقدمت هذه الحضارة للبشرية تشريعات حمورابي الشهيرة.

(جـ) أما الحضارة الأشورية فقد عاصرت الحضارة البابلية. وإذا كانت الحضارة البابلية قد قدمت للبشرية إنجازات رائعة في مجال التشريع، فإن أشور قد طورت أساليب الكتابة. ولقد قام أشوربنيبال ملك أشور Assyria (٦٢٦ ق.م) بإنشاء كثير من المكتبات منها مكتبة نينوى Nine-veh الشهيرة.[2]

(د) الحضارة المصرية القديمة : انتعشت هذه الحضارة في وقت مزامن لحضارات ميزوبوتاميا (العراق القديم) وأقدم الكتابات المصرية المعروفة تعود لسنة ٣٠٠٠ قبل الميلاد، على أن الحضارة المصرية أكثر إيغالا في التاريخ من ٣٠٠٠ قبل الميلاد إذ أن من أقدم الأسانيد التاريخية التي نعرفها الآن والتي تؤكد ذلك رأس دبوس حجري Mace-head ينسب لملك يسميه الأثاريون الملك العقرب ذلك أن اسمه كان يكتب باللغة المصرية القديمة على شكل عقرب. وميناء موحد مصر يرجعه المؤرخون إلى فترة تعود قدما من ٣٢٠٠ قبل الميلاد، إلى ٣١٠٠ قبل الميلاد.

---

(١) يمكن معرفة إلمامة من هذه الحضارات من أي كتاب من كتب التاريخ القديم وإن كنا قد اعتمدنا على عدة مراجع لتوافرها بين أيدينا عند كتابة هذا الفصل ومنها:

- مايرز، ج.ل. فجر التاريخ. ترجمة علي عزت الأنصاري. مراجعة الدكتور عبد العزيز كامل. القاهرة، مركز الشرق الأوسط، ١٩٦٢.
- الفصل الأول من كتاب جين كي جيتس : دليل القارىء والباحث عن استخدام الكتب والمكتبات. ترجمة الدكتور عبد الرحمن عبدالله الشيخ. الكويت، دار البحوث العلمية، ١٩٧٨. والفصل المذكور عن تاريخ الكتب والمكتبات عبر العصور.
- علي إبراهيم حسن: التاريخ الإسلامي العام. القاهرة، مكتبة النهضة المصرية، عام ١٩٧٧.

(٢) عن مادة الكتابة لديهم وطبيعة الخط المسماري أو الإسفيني انظر ما كتبناه عن النقد المادي للوثائق في هذا الكتاب.

وكانت حاضرة مصر على أيام مينا هي طيبة إلى الغرب من جرجا وهي مدينة في صعيد مصر، كما كانت أبيدوس هي العاصمة الدينية. وعلى أيام مينا أيضا تم تشييد منوفر Menofer التي عرفها الإغريق باسم ممفيس وعرفها العرب باسم منف. ومنوفر أو ممفيس أو منف أسست عند رأس مثلث الدلتا بين الوجه البحري والوجه القبلي أو صعيد مصر واتخذها ملوك الأسرة الثالثة حاضرة أو عاصمة لهم واستمرت منف عاصمة حتى سنة ٢٣٦٠ قبل الميلاد وهذا لم يلغ دور طيبة فقد ظلت مدينة هامة.

(هـ) بعد حوالي ١٢٠٠ سنة قبل الميلاد كان الفينيقيون سادة البحر المتوسط وفينيقيا في التاريخ القديم هي الشريط الساحلي الضيق الذي يبلغ طوله ١٠٠ ميل وعرضه عشرة أميال، والذي يقع بين سوريا الحالية وساحل البحر المتوسط، ولقد كانوا رجال بحر وتجارا من الطراز الأول.

(و) الحضارة الصينية : عرف الصينيون الكتابة في الألف الثالثة قبل الميلاد وقد شهدت الحضارة الصينية كثيرا من المفكرين والفنانين لكن أشهرهم هو كونفوشيوس المصلح الكبير الذي لم يدع أن وحيا يهبط عليه من السماء ولكنه وصف نفسه بالمصلح. ففي القرن الخامس قبل الميلاد وقع كونفوشيوس بالتأمل في نظم الحكم وإصلاح حال الرعية وراح يدعو حكام الصين لاعتناق مبادئه لكن واحداً منهم لم يرحب بذلك فعزف كونفوشيوس عن مجال الحكم والسياسة وأسس مدرسة وكان كونفوشيوس مبشرا بنظرية السلطة المطلقة العادلة. ولقد أثرت قوانين كونفوشيوس في تاريخ الصين حتى بعد موته ويشير إليه الصينيون بالحكيم.

(ز) الحضارة اليونانية: في بداية الألف الثانية قبل الميلاد كانت كريت Crete مركزا لحضارة متطورة، وانتشرت هذه الحضارة في بلاد اليونان. وقبل نهاية القرن الخامس عشر قبل الميلاد كانت هذه الحضارة تعم منطقة بحر ايجه Aegean Area ولقد كان القرن الخامس قبل الميلاد هو العصر الذهبي للحضارة اليونانية، وهو الفترة التي تميزت بالآداب الخلاقة كتراجيديات سوفوكليس وايخيليوس ويوربيدز Sophocles, Aechylus, Euripides وتاريخ هيرودوت Herodotus وأشعار بندار Pindar وتاريخ ثيوسيديس Thucidides وكوميديات أرستوفان وفلسفة سقراط. وهذه الفترة التي تميزت بالإنتاج الأدبي والفكري الراقي امتدت تأثيراتها إلى القرن الرابع بل والثالث

قبل الميلاد، وتمثل هذا التأثير في أعمال أفلاطون Plato وارسطو Aristotle، كما كان هذا التأثير أيضا في مجال الدراما والشعر والخطابة Oration والموسيقى.

والفترة الهيلينستية Hellenistic هي الفترة التي تبدأ من وفاة الاسكندر ٣٢٣ ق.م. حتى الغزو الروماني وشهدت هذه الحقبة استمرار النشاط الأدبي الذي كان سائدا في القرن السابق مع تركيز خاص على المعارف العلمية.

(ح) الحضارة العربية القديمة (السابقة على الاسلام) وقد اصطلح الباحثون على تسميتها بالجاهلية، والجاهلية قد تكون مشتقة من الجهل الذي هو ضد العلم، وقد تعني عصر السفه والغضب والحمق وعدم الانضباط، ومن الناحية التاريخية فإن عصر الجاهلية يطلق اصطلاحا على تاريخ الجزيرة العربية فقط قبل ظهور الإسلام.

وشهدت جزيرة العرب فيما قبل الإسلام بعض الممالك، كمملكة معين في الألف الثانية قبل الميلاد، ومملكة سبا الشهيرة والتي امتدت حضارتها في الفترة من ٩٥٠ إلى ١١٥ قبل الميلاد، وقد شهدت بلاد العرب الشمالية إمارتين تابعتين هما إمارة الحيرة (جنوب الكوفة) وأمارة الغساسنة.

كما شهد تاريخ العرب قبل الإسلام مدنا زاهرة كمكة والمدينة والطائف وكان عرب الجاهلية في غالبيتهم على الوثنية، مع وجود أقليات مسيحية ويهودية وصابئة[1].

بعض الأحداث الهامة في التاريخ القديم :

١ - اخناتون ودعوة التوحيد الأولى على ضفاف النيل :

كان التوحيد والتفكير في الإله الواحد هو الشغل الشاغل لأخناتون أو أمنحوتب الرابع (١٣٧٥ - ١٣٥٨ قبل الميلاد) لقد انقطع اخناتون للتأمل، ولم يكن راضيا بحال عن تعدد الآلهة في مصر، واستغراق هذا الملك في التأمل الفلسفي، رغم أبهة الملك، وزينة المال والولد، ومتعة الزوجة رائعة الجمال نفرتيتي، يستدعي التوقف والتأمل طويلا.

(١) حسن، على ابراهيم: التاريخ الإسلامي العام - القاهرة النهضة المصرية، ١٩٧٧ ص ص ٢٨ - ١٦٨.

لقد كان المصريون إلى أيام أخناتون يعبدون آلهة عدة على رأسها آمون رب الأرباب. وكان معبد آمون الرئيسي في طيبة عاصمة مصر.

لكن اخناتون راح يناجي إلها هو «خالق كل شيء» وهو الذي يجعل «الكتكوت يصيص في بيضته» وجعل أخناتون الشمس رمزاً لهذا الإله. لكن كهنة آمون أبوا عليه ذلك، لذلك نقل أخناتون عاصمة بلاده من طيبة وبني له عاصمة جديدة في تل العمارنة أسماها أخيتاتون، وكما يحدث في كل حركات الإصلاح الديني، عمد أخناتون إلى محو الآثار التي تشير إلى اسم آمون، حتى تلك التي نقشها أبوه. لقد كانت دعوة أخناتون صريحة للتوحيد ونادى بالإخاء البشري، لكن الكهنة أخمدوا دعوته وعبدوا الأصنام من جديد وخربوا عاصمته بعد وفاته ١٣٥٨ قبل الميلاد.

٢ – ومن أهم الأحداث في التاريخ القديم، والتي لعبت دورا هاما وأساسيا في تاريخ أوروبا، بل والمعتقد المسيحي، اجتماع نيقية سنة ٣٢٥ للميلاد والذي عرف باسم مجتمع نيقية[1] المسكوني، وهو أهم المجامع الكنسية على الإطلاق.

لقد عقد هذا المجمع بعد أن استشرت الفوضى العقائدية بين المسيحيين. فوضى وخلافات تمس جوهر العقيدة وطبيعة الاله. هل المسيح اله أم ابن الله، هل هو بشر رسول؟ أم اله؟ أم يجمع بين الألوهية والبشرية؟ ألابد أن يتهود الإنسان قبل أن يتمسح؟ وكيف التوفيق بين كون الإله أبا وابنا وروحا قدسا وهو في نفس الآن واحد؟

من هنا انقسمت الكنائس لمذاهب شتى، ووضعت كل كنيسة قانون إيمان جعلت الخارج عنه كافرا، ومن هنا أتت أهمية مجمع نيقية المسكوني. والمسكوني صفة تعني أنه ضم ممثلين عن كل الكنائس المسيحية، أو ممثلين من كل المسكونة أي الأرض. ولم يخرج مجمع نيقية بإجماع الآراء، وإنما كانت طبيعة المسيح مسألة اقتراع أو انتخاب أو استفتاء.

لقد عقد مجمع نيقية بإيحاء من السلطة الزمنية (الامبراطور قسطنطين). لقد كان الامبراطور يريد لامبراطوريته أن تستقر ويخشى أن تتحول الخلافات الدينية إلى خلافات

(١) نيقية في آسيا الصغرى على بحيرة إسكانيا، وكانت قريبة من المقر الإمبراطوري الصيفي.

سياسية «فلم يكن اعترافه بالمسيحية وتأييده لها سوى مظهر من مظاهر السياسة المدنية لتثبيت أركان امبراطوريته».

وكان أهم انشقاق في الكنيسة، هو ذلك الانشقاق الذي تسبب فيه اكليركي تابع لأبرشيه الاسكندرية اسمه آريوس خالف الأسقف السكندري الكبير (اسكندر) وقد كان من رأي آريوس أن المسيح عليه السلام بشر وأنه مخلوق وأنه لا تثليث، فالله واحد لا يتجزأ وأن المسيح ليس من معدن إلهي «فمن كان مخلوقا فهو في مرتبة ثانية بعد الخالق، وأن المسيح عليه السلام ليس أزليا فقد أتى حين من الدهر لم يكن له وجود، أما الله سبحانه وتعالى فلا قبل له ولا بعد.

لاحظ عزيزي القارىء – أن تلك نفسها هي نظرة الإسلام للمسيح، نادى بها آريوس قبل البعثة المحمدية بأكثر من ثلاثمائة سنة.

وقد لخص آريوس معتقده في نقاط:

١ – كان زمن لم يكن فيه للمسيح وجود، أو قبل أن يولد لم يكن.

٢ – خُلق من جوهر لم يكن موجودا من قبل (أي خُلق من العدم).

٣ – خلق من جوهر يتميز عن جوهر الله (إنه ليس الله)

٤ – إنه مخلوق.

ثم ذكر آريوس في أحد خطاباته «لا نرتد عن إيماننا هذا ولو هددونا بألف ميتة شنيعة» وظل الرجل شديد الإيمان بمعتقده حتى مماته.

لقد أصبح الانشقاق في الكنيسة المسيحية – خاصة أقوال آريوس وأتباعه – خطرا على المسيحية، وكاد هذا الانشقاق الديني يهدد الوحدة السياسية للامبراطورية الرومانية، فبعث الامبراطور رسائله إلى الاسكندرية يطلب من الأساقفة الكف عن الجدل فلم تجد رسائله فتيلا، فدعا أساقفة الكنيسة في أوروبا وأفريقيا وآسيا إلى الاجتماع في نيقية، فحضر ٣١٨ أسقفا تقريبا ومع كل منهم حاشية من مريديه، ووضع قسطنطين القصر الإمبراطوري تحت تصرف المجمع. وانقسم المجتمعون إلى فئات ثلاث:

أولا : جماعة آريوس، وكانوا أقلية نشطة وكان على رأسها أحد أتباع آريوس.

ثانيا : خصوم آريوس وعلى رأسهم اسكندر أسقف الإسكندرية.

ثالثا : فئة وسط حائرة لا تؤمن بعقيدة آريوس ولا بتزمت كنيسة الإسكندرية تهدف إلى تحقيق رغبة الامبراطور والتوفيق بين المتخاصمين. وعلى رأسهم يوسيبوس وهو مؤرخ كنسي وعرف باسم القيصري نسبة إلى قيصرية في فلسطين .

وقدم الآريوسيون (قانون إيمان) ينص على المعتقدات التي سبق أن أشرنا إليها، فأثار غضب جماعة اسكندر، فقدم يوسيبوس وأعوانه (قانونا وسطا) وتعاطف الامبراطور مع هذا (الوسط) ولما وجد أن عددا كبيرا من الأساقفة لا يروقهم هذا القانون طلب تعديله، وبعد التعديل طرح فحاز على أصوات الأغلبية وإن رفضته تماما جماعة آريوس، لكن الإمبراطور وقعه وأصبح ذلك هو قانون الإيمان الرسمي، ونص هذا القانون على (لَعْن) أتباع آريوس الذين تعرضوا بعد ذلك لاضطهادات شديدة[1].

(٣) التاريخ الوسيط أو العصور الوسطى:

وتبدأ تقريبا من سنة ٣٩٥ وهو العام الذي انقسمت فيه الامبراطورية الرومانية إلى قسمين كما سبق أن أشرنا عند الحديث عن التاريخ القديم أو ٤٧٦ وقد سبق مناقشة هذا التاريخ كحد زمني لنهاية العصر القديم. ويمكن القول إجمالا ان القرن الرابع للميلاد هو البداية المعقولة للعصر الوسيط. أما عن نهاية العصر الوسيط وبداية الحديث فهناك جمهرة كبيرة من المؤرخين تعتبر سنة ١٤٥٣ وهي سنة سقوط القسطنطينية على يد الفاتح التركي محمد الفاتح أساسا للتحديد، وإن كان هناك تواريخ أخرى لا تخلو من دلالة مثل سنة ١٤٥٠ حيث اخترع جوتنبرج الطباعة فكان حقا وصدقا فاتحة نشر الثقافة المبنية على الكلمة ويسر للناس سبل الثقافة أو ١٤٩٢ حيث اكتشف كولمبس القارة الأمريكية وحيث بداية خروج المسلمون من أسبانيا أو ١٤٩٤ باعتباره عام التنسيق بين المسيحية على يد البابا فلم تتصارع قواها لفترة من الزمن إذ توسط البابا لعقد اتفاق بين أسبانيا والبرتغال تمثله معاهدةتورد سيلاسي[2] Tordosillac وإن كان هذا التاريخ الأخير لا يصلح مرتكزاً في الواقع لتحديد نهاية عصر وبداية آخر لسبب بسيط وهو أن هذا الاتفاق بين القوى المسيحية ما لبث أن تفجر بعد ذلك.

---

(١) فريحة أنيس : دراسات في التاريخ. بيروت: دار النهار للنشر، ١٩٨٠ ص ٢٣٨ - ٢٥٠.

(٢) طرخان، إبراهيم علي : مدخل إلى علم التاريخ. مذكرة على الاستنسل ص ٤١.

وهناك بعض المؤرخين والباحثين الأسبان يرون أنه من الأجدر اعتبار سنة ١٤١٥ بداية العصور الحديثة لإن القوى الأيبيرية دحرت المسلمين في الأندلس ولم يبق منهم إلا كيان هش، وأن القوى المسيحية استطاعت أن تتبع المسلمين في الشمال الأفريقي فاستولت على سبتة في ذلك التاريخ «ففي ٢٥ يوليو عام ١٤١٥ غادرت ميناء لشبونة قوة برتغالية ضخمة على ظهر أسطول من ٢٤٠ سفينة وحرصت البرتغال على إخفاء وجهة هذه الحملة حتى وصلت سفنها إلى ميناء سبته المغربي الذي فوجيء بهذا الغزو ودخل الغزاة المدينة... لذا يقول الضابط البرتغالي فاسكو دي كرافيالو : «إن هذا الحدث الخطير والعظيم أجدر بأن يعتبر بداية للعصور الحديثة من أن يتخذ سقوط القسطنطينية في يد المسلمين ١٤٥٣ بداية لها»[1].

ويبدو أن هذا الرأى طرح في مناخ يتوقع فيه العالم المسيحي إزالة العالم الإسلامي واقتلاع جذوره.

ومهما يكن من أمر ، فإن اختلاف هذه التواريخ أمر يسير فكلها في القرن الخامس عشر وبصرف النظر عن الرأى المتعصب الذي طالب باعتبار ١٤١٥ نهاية للعصور الوسطى وبداية للحديثة فإن باقي التواريخ في النصف الثاني من القرن الخامس عشر.

أهم الأحداث التاريخية التي صبغت التاريخ الوسيط بصبغتها:

بعثة الرسول عليه السلام وهجرته والفتوح الإسلامية

ولد الهدى سنة ٥٧٠ للميلاد تقريبا، وتلقى الوحي سنة ٦١٠ وجهر بدعوته سنة ٦١٣ فتعرض لاضطهاد شديد فوجه بعض صحبه للحبشة سنة ٦١٥ وفي سنة ٦٢٢ هاجر للمدينة، فكان لهذه الهجرة آثار عظيمة في تاريخ الدعوة. كثيرة هي الكتابات عن الهجرة، وليس هنا مجال تفصيل أحداثها، لكن يهمنا أن نقول إنه منذ الهجرة، والإسلام في تقدم مستمر، لقد كان فتح مكة سنة ٦٣٠، وتوفي الداعي الرسول (ص) سنة ٦٣٢ ومن يومها لم يحدث طوال مراحل التاريخ أن تقلصت خريطة العالم الإسلامي أو اعترى المعتنقين له نقص في العدد، حتى في أحلك فترات الضعف.

---

(١) الجمل، شوقي عطاالله : المغرب العربي في العصر الحديث ص ٤٤.

١ – طبيعة الإسلام نفسه هي العامل الأساسي في رسم خريطة العالم الاسلامي منذ أن كان الإسلام وحتى اليوم، وطبيعة الإسلام نفسه بالإضافة إلى جهود المسلمين هي التي ستحدد اتساع هذه الخريطة وامتدادها في مستقبل الأيام.

ونقصد بطبيعة الإسلام أنه دين دعوة أنزل للناس كافة أو بتعبير آخر أنه دين عالمي النزعة.

ومثل هذه الكلمات تتكرر كثيراً لدرجة أن كثيرين منا باتوا لا يعرفون ما تنطوي عليه هذه الكلمات من أفكار ومن أحاسيس أيضا. لذلك فإن الأمثلة والشواهد تعيد إلى أذهاننا الخصوبة وتجعل أفكارا جديدة تنبثق في عقولنا وفي قلوبنا.

إن المسلم – وكذلك النصراني – يسعد سعادة كبيرة عندما يرى شخصا يتحول إلى دينه؟ فماذا تعني هذه السعادة؟ إنك كمسلم تعتقد أنك على حق، وتعتقد أن معتقدك أو دينك هو الصحيح وأنه سيؤدي بك إلى حياة أخروية سعيدة مع الحور العين وعلى ضفاف أنهار من خمر ولبن وعسل مصفى ومعنى أنك تسعد أو تفرح عند دخول غير المسلم في دينك إنك ترحب به شريكا في هذا النعيم! والمسلم لا يكتفي بالترحيب بمن يدخل في دينه بل هو يسعى إلى ذلك أو هو يدعوه أو يبذل قصاري جهده لإقناعه بدخول الدين الحق. ألا يدل هذا على طيبة قلب وعلى سلامة طوية، وعلى فكر زاخر بحب الناس كافة؟ ورب قائل إن كل الأديان على هذا النحو والإجابة فورا : كلا، فاليهودي يعتقد أن اليهودية قصر عليه كجنس أو شعب، لذلك فهو لا يرحب بك لو أردت دخول دينه، ولا يدعوك إليه. إن الله هو ربه فقط فيما يرى، واليهودية دين وجنس معا، إنها مقتصرة عليهم. ونفس الشيء بالنسبة للبرهمية والزرادشتية مع فارق بسيط وهو أن البراهمة والزرادشتيين لا يدعون أصولا عرقية واحدة. لهذا فهي أديان منقرضة بالضرورة إذا انقرض الجنس أو اعترى المعتنقين الحاليين فناء أو عقم أو وباء. أو على أحسن تقدير إنها أديان في تناقص مستمر.

٢ – أما الإسلام فلم يحدث منذ أن كان إسلاما أن اعترى المعتنقين له نقص عددي.. إنه في زيادة مستمرة حتى في أكثر المراحل التي مر بها المسلمون صعوبة وشدة. وتلك حقيقة سنشير لها في أكثر من موضع في هذه الدراسة، وهذا يرجع كما سبق القول إلى أنه عالمي النزعة، وقد ظهرت هذه العالمية لا في نصوص القرآن الكريم فحسب وإنما في الوقائع التاريخية ومنذ بداية

عهد الإسلام فقد كان من بين صحابة الرسول الأوائل ممثلون لكل أجناس البشر فقد كان هناك صهيب الرومي وسلمان الفارسي وبلال الحبشي أما الجنس الحامي فهو مختلط بالجنس السامي منذ البداية، لذا فأم ابراهيم (مارية القبطية) قد تكون حامية وقد تكون سامية وأم العرب هاجر قد تكون حامية وقد تكون سامية وقد تكون الدماء الحامية والسامية تجري في عروقها معا.

يبدو أن كل هذا ليس صدفة وإنما هي وقائع تاريخية تؤكد عالمية الدعوة.

٣ – ثم أننا نلاحظ أن توجيهات الرسول ومراسلاته الباكرة كأنها كانت ترسم الطرق التي سارت فيها الفتوح والدعوة بعد ذلك. ففي سنة ٦١٥ أي قبل الهجرة بسنوات سبع هاجر بعض المسلمين للحبشة، وهو نفس الطريق الذي سلكه الإسلام لشرق القارة الافريقية بعد ذلك وأرسل الرسول (ص) خطابا للمقوقس حاكم مصر الذي أهداه مارية القبطية، وعن طريق مصر انتشر الإسلام في المغرب بعد ذلك وسار صعدا في وادي النيل وأرسل الرسول(ص) خطابا لهرقل قيصر الروم وكسري فارس وحاكم اليمن.. وكل هذه المراسلات كانت سنة ٦٢٨ م أو حوالي السنة السادسة للهجرة.

لو تتبعنا حركة انتشار الاسلام بعد ذلك لوجدناها تتبع نفس الخطوط أو التوجيهات فقد خرج الإسلام من الجزيرة وانتشر في آسيا وأفريقيا وأوروبا. ففي أفريقيا دخل الإسلام عن طريقين أساسيين هما: مصر والبحر الأحمر أو مضيق باب المندب. وفي آسيا اتخذ الإسلام طريق الشام (الروم) ثم العراق وفارس وفي الطرف الغربي للقارة الأفريقية حمل البربر ومعهم العرب مهمة نشر الإسلام شمالا للأندلس وصقلية وجنوبا عبر الصحراء الكبري إلى أفريقيا الزنجية. أما طريق البحر الأحمر أو باب المندب فقد انتقل عن طريقه الإسلام إلى الحبشة وكينيا وتنزانيا أو شرق القارة الأفريقية بل وتغلغل إلى أعالي الكونغو، وأعالي النيل (أوغندة) وسواحل البحر الأحمر الغربية (ارتريا وجيبوتي وشرق السودان) والتقي هذا الجهد مع الجهد الآتي من النيل الأدني صاعدا إلى السودان، ذلك الجهد الآتي من مصر.

ولم يتوقف خط انتشار الإسلام المتجه شرقا عبر آسيا عند حدود إيران بل لقد وقف قتيبه

بن مسلم الباهلي على أبواب الصين يدق بابها ويدخل الإسلام الصين وكان الرقم المعلن عن عدد المسلمين في الصين سنة ١٩١٠ هو ٨٠ مليون مسلم. وحمل الأتراك الآسيويون فكرة الإسلام إلى آسيا الصغرى وإلى عمق القارة الأوروبية بل ودق الأتراك العثمانيون أبواب فيينا.

وهذه الخطوط التي سار فيها الإسلام لم تكن مفاجأة وإنما كانت تسبقها إرهاصات تاريخية سبق أن أشرنا إليها. إرهاصات يمكن أن نصفها بأنها إعجاز تاريخي.

إرهاص تاريخي آخر يمر علينا دون أن نتنبه له. لقد حدد الرسول عليه السلام مواقيت للإحرام للحج، فحدد الجحفة أو رابغ ميقاتا مكانيا لأهل مصر وما يليها غربا وذات عرق (شمال شرق مكة) ميقاتا لأهل العراق وما يليها، وقرن المنازل (بالقرب من السيل) ميقاتا لأهل نجد وما يليها شرقا. ويلملم (جبل جنوب مكة) ميقاتا لأهل اليمن. أما ميقات أهل المدينة فذي الحليفة (آبار علي). لقد كان الرسول على وعي تاريخي كامل بأن كل تلك الأنحاء ستسلم وستدخل في دين الله أفواجا، وإلا كيف نفسر تحديد هذه المواقيت مع أن الرسول (ص) قد توفي سنة ٦٣٢م أو سنة ١٠ هـ ولم تكن الشام أو مصر أو العراق ولا ما وراء ذلك كله قد فتحت أو انتشر فيها الإسلام انتشاراً جماهيريا، ألا يدخل ذلك في باب الإعجاز التاريخي[1]؟!

* * *

ذكرنا فيما سبق إلمامة يسيرة عن طبيعة الإسلام وأثره في رسم خريطة انتشاره. كما ذكرنا إلمامة يسيرة عن الإرهاصات الثابتة تاريخيا عن انتشار الإسلام وامتداده. وما نحب أن نؤكده هنا أن خريطة توزيع المسلمين الآن لم تصل لمرحلة الثبات النهائي وإنما ما زال الإسلام قابلا للانتشار وعلى نطاق واسع، فإذا كان الجغرافيون يقولون إن الإسلام ينتشر الآن (١٩٨٢) ما بين خطي عرض ٦٠° شمالا و٦ جنوبا تقريبا. أو ما بين نهر روفوما (الحد الفاصل ما بين تنزانيا وموزمبيق) جنوبا وأعالي نهر الفولجا شمالا، وما بين خطي طول ١٢٠ شرقا و١٨ غربا أو أقصى شرق أندونيسيا إلى أقصى الساحل الغربي في أفريقيا الغربية أو ما يسمى بطن

(١) الشيخ، عبد الرحمن عبدالله: خريطة العالم الإسلامي من منظور تاريخي جديد. مقال نشر في جريدة السياسة (الهدف) الكويت ١٩٨٢/١١/٥.

أفريقيا. إذا كان هذا هو التوزيع الحالي التقريبي - بالإضافة للأقليات الإسلامية في أوروبا والأمريكتين واستراليا - فإن إمكانات الانتشار الإسلامي المستقبلي قائمة وبغير حدود، وسنضرب لذلك بعض الأمثلة:

(أ) الوثنيون باختلاف فئاتهم في القارة الأفريقية والذين يطلق على معتقداتهم مسميات شتى مثل Paganism أو Fetishism أو Animism وهذا المصطلح الأخير يترجم بالأرواحية - هؤلاء يعتبرون رصيدا مستقبلياً للإسلام. ويلاحظ أن إسلام فرد واحد له وضعية اجتماعية في هذه المناطق الوثنية ومكن أن يجر للإسلام قبيلة بأكملها أو شعبا بأكمله. آخر هؤلاء عمر بونجو رئيس الجابون وقد اعتنق الإسلام في إثره كثيرون. وتشاد ليست دولة إسلامية فحسب وإنما هي على شفا عروبة والوثنيون في جنوبها يمكن تحويلهم للإسلام بسهولة، وأفريقيا الوسطى ووثنيو غابات الكنغو ورواندا وبوروندى وغير ذلك.

(ب) وفيما كان يسمى الاتحاد السوفييتي ومازال المسلمون على معتقدهم ويحملون أسماءهم الإسلامية رغم كل شيء، وفي الصين سحقت المسيحية، ورغم كل محاولات سحق الإسلام فمازال المسلمون موجودين وقد زار صحفي عربي الصين سنة ١٩٨٠ ووجد أن الصينيين المسلمين مايزالون يمتنعون عن أكل لحم الخنزير وأن لهم مطاعم يقال لها المطاعم الإسلامية لا يطبخ فيها إلا ما أحل الله.

وهناك فكرة أساسية أريد تأكيدها هنا وهي أن تفريغ الناس من معتقداتهم الدينية المسيحية والبوذية وغيرها في الدول التي تتخذ موقفا مناهضا للدين... هذا التفريغ هو في النهاية لصالح المعتقد الإسلامي. لقد كان اللادينيون أو الوثنيون من الناحية التاريخية أسرع تقبلا للإسلام من غيرهم. فقد انتشر الإسلام انتشار النار في الهشيم بين البربر وانتشار الإسلام المذهل بين المغول رغم انتصاراتهم العسكرية يجعل المؤرخ يقف متأملا...

لذلك فالباحث يتوقع أنه بمجرد سقوط الأنظمة اللادينية وسطوتها العسكرية أو تحللها أو ظهور الفكرة المضادة على حد تعبير هيجل فإن الإسلام سيجد نفسه أمام أقوام ليس لديهم أي أرضية روحية فيكون تقبلهم له - أي للإسلام - سريعا..

(جـ) أما في أوروبا فنحن جميعا نعرف أن شرق القارة الأوروبية زاخر بأقليات إسلامية قوية بل إن دولة بأكملها مثل ألبانيا على البحر الأدرياتي تعتنق الإسلام رغم فرض المعتقد اللادينى. ولقد كان انتشار الإسلام في أوروبا الغربية هذه الأيام مرتبطا بنمو الحركات الإلحادية أو اللادينية أو الحركات الرافضة للحضارة الحديثة.

(د) وفي الأمريكتين جماعات إسلامية مهاجرة وكان اعتناق الزنوج الأمريكيين للإسلام رغبة منهم في الرجوع إلى أصولهم الزنجية وإلى دين آبائهم كما قال بعضهم، كما كان رد فعل ضد التفرقة العنصرية إلى جانب المزايا الذاتية للإسلام.

وملاحظة أخرى على خريطة الإسلام وهي أنه لم يحدث أبدا طوال مراحل التاريخ أن تقلصت هذه الخريطة أو نقصت، بل هي طوال مراحل التاريخ وحتى الآن في ازدياد واتساع. وقد يكون هذا من قبيل الوجد الديني أو المبالغة ولكنها في الواقع حقيقة تاريخية، حتى في مراحل الانهزام العسكري كان الإسلام أيضا ينتشر وتتسع رقعته إما باعتناق الغزاة الإسلام وإما بتعويض تاريخي مزامن لا نجد له تفسيراً إلا عناية الله. وهناك أمثلة عديدة على ذلك.

فمنذ أواخر القرن الحادي عشر للميلاد والوجود الإسلامي في تقهقر واضح في شبه جزيرة أيبيريا أو الأندلس، ففي ١٠٨٥ سقطت طليطلة في يد نصاري الجزيرة بمعاونة الفرنجة، وفي نفس الفترة تقريبا كان ألب أرسلان السلجوقي (١٠٦٣ - ١٠٧٢) يطرد البيزنطيين من معظم آسيا الصغرى، وطوال هذه الفترة وما بعدها كان الأتراك يهاجرون غربا إلى آسيا الصغري بالذات متتبعين آثار السلاجقة أبناء عمومتهم. ومن الطرف الاخر للعالم الإسلامي سقطت قرطبة سنة ١٢٣٦ ثم استمر الزحف المسيحي فسقطت أشبيلية سنة ١٢٤٨. لقد بدأ الإسلام في أيبيريا أو الطرف الغربي للعالم الإسلامي مضعضعا على وشك الانهيار وفي سنة ١٤٠٣ ـ ١٤٠٤ القسطنطينية في يد المسلمين الأتراك العثمانيين وفزعت أوروبا كلها واستدارت تاركة الانتصارات المسيحية في أيبيريا لتواجه نكسات وهزائم أخطر عقب سقوط القسطنطينية. إن الإسلام من هذا الباب القسطنطيني صار أقرب لقلب أوروبا من حبل الوريد.

توازن! توازن غريب، ليبحث فلاسفة التاريخ عن تفسير له، توازن مدهش! وسقطت آخر القلاع الإسلامية في الأندلس وهي غرناطة سنة ١٤٩٢ بينما كان الإسلام متمركزا في شرق

أوروبا بل وكان في مرحلة بعث وانتشار. وفي أوروبا اليوم دولة إسلامية يزيد عدد المسلمين فيها على ٩٨٪ وهي ألبانيا، لكننا أضحينا لا نعرف عنها إلا قليلا منذ غمرها الحكم الشيوعي.

وهكذا لم تنقص مساحة العالم الإسلامي ولا نقص عدد المسلمين أثناء المد المسيحي في الأندلس وأثناء تفكك العالم الإسلامي. ورغم التعصب الشرس الذي تعرض له المسلمون في الأندلس لدرجة أن المراجع تذكر أن أكثر من ثلاثة ملايين مسلم قد جرى قتلهم أو طردهم من أسبانيا حتى بداية القرن السابع عشر بفرض أن تكون أسبانيا واحدية الدين بمعني ألا توجد بها ديانة أخرى غير المسيحية.

نضرب مثالا آخر بمرحلة تاريخية بدا فيها الإسلام وكأنه يحتضر ونعني بها فترة الهجوم التتري أو المغولي على العالم الإسلامي وسقطت بغداد عاصمة الخلافة على يد هولاكو ١٢٥٦م واجتاح المغول في طريقهم قبل بغداد المناطق المحيطة ببحر الخزر (قزوين) وبحيرة خوارزم (بحر آرال) وضموا كل مناطق وسط آسيا والتي تعرف باسم بلاد ما وراء النهر Trans oxania ووصلوا جنوبا حتى ما بعد ممر خيبر وكانت سيطرتهم تمتد إلى كاشغر شرقا (ضمن الصين الآن) وصين الصين أي عمق الصين، وكان الإسلام أثناء الهجمة التترية، دينا موجودا في كل هذه المناطق، وقويا ومحترما بل لقد كان في صفوف التتار أنفسهم أعداد من المسلمين وصلوا لدرجة الوزارة وتولوا حكم بعض الولايات، بل لقد كان بركة التتري أو المغولي منافس هولاكو على العرش مسلما. ولقد تولى بركة التتري المسلم حكم منطقة واسعة عرفت بالأورد الذهبي في الفترة من ١٢٥٧ إلى ١٢٦٦ وتولى مباركشاه التتري المسلم حكم خانية آل جغتاي بصفة غير رسمية قبل ١٢٦٦ وفي نفس العام عين حاكما رسميا على المنطقة، ومباركشاه هذا هو الحفيد الثالث لجنكيز خان.

والواقع أننا مدينون بكثير من التفاصيل عن تاريخ الإسلام في هذه الفترة في شرق بغداد وحتى الصين لكتاب المستشرق الروسي بارتولد (١٨٦٩ - ١٩٣٠) والذي ترجم للعربية سنة ١٩٨١ تحت عنوان تركستان من الفتح العربي إلى الغزو المغولي. وتكفي هنا هذه الإشارات الموجزة حتى لا يخرج البحث عن هدفه. المهم أن هذا الغزو المغولي رغم أنه أسقط عاصمة الخلافة العباسية وجمد الحركة الفكرية في العالم الإسلامي لفترة إلا أن هناك نتائج أخرى هامة

انبثقت عنه كانت بالتأكيد لصالح خريطة العالم الإسلامي، ولصالح زيادة عدد الداخلين فيه نوجزها على النحو التالي:

(أ) قضي المغول تماما على عصابة الحشاشين الاسماعيلية التي أسسها الحسن بن الصباح سنة ١٠٩٠ شمال فارس وسوريا وقد ظلت قلاع هذه الطائفة ومبادؤها تثير الرعب في العالم الإسلامي. ولم يقمع هذا الإرهاب نهائيا إلا بعد قضاء المغول على هذه الحركة الإسماعيلية في القرن الثالث عشر للميلاد ولم يعد لشيخ الجبل وجود.

(ب) كان الصراع المذهبي البغيض والصراع القبلي أيضا بين العرب في خوارزم وبلاد ما وراء النهر عاملا مضعفا للإسلام وقد لقن المغول هؤلاء المتصارعين درسا قاسيا لم يعيشوا بعده ليدركوه وإن كان أبناؤهم وأحفادهم قد أدركوه يقينا. ولم يكن المغول أصحاب عقيدة ينشرونها لذلك لم يجبروا أحدا على اعتناق وثنيتهم الشامانية، بل إن المغول - قبل غزو بغداد - كانوا في الغالب الأعم يميلون للمسلمين أكثر من ميلهم للبوذيين والمسيحيين رغم جهود اتباع الديانتين لنشرهما.

(جـ) أما بعد غزو بغداد وهزيمة المغول على يد مماليك مصر فان ما حدث يدعو للتوقف طويلا، ولنقرأ معا ما كتبه روم لاندو وهو ما يدرسه لطلبة التاريخ في جامعة المحيط الهادي بكاليفورنيا في الولايات المتحدة الامريكية: «وبعد أن غزا المغول سوريا ليصدهم عنها سلطان المماليك بيبرس، وطدوا أقدامهم في فارس والعراق وانصرفوا إلى تعمير الأرض التي كانوا قد خربوها دون رحمة، والواقع أن هذا التغير المدهش الذي طرأ على سياسة المغول إنما هو ثمرة من ثمار نفوذ الإسلام المدين المرسخ، فبعد أن احتل المغول الامبراطورية الإسلامية وجدوا أنفسهم في وضع كالوضع الذي جابهه كثير من المنتصرين قبلهم: لقد خضعوا لدين ضحاياهم وثقافتهم».

وهكذا أدي الغزو المغولي لأسلام المغول أنفسهم وتوثيق عري الإسلام وتعميقه في وسط آسيا وترسيخ أقدامه حتى حدود الصين بل وكان تدعيما للاسلام في الصين نفسها.

وهكذا زاد عدد المسلمين واتسعت رقعة العالم الإسلامي ولم تنقص![1]

---

(١) الشيخ، عبد الرحمن عبدالله : خريطة العالم الاسلامي من منظور جديد. الطبعة الثانية، مقال نشر في جريدة السياسة (الهدف) الكويت، ١٢/١١/١٩٨٢.

٣ - التاريخ الحديث:

منذ انتهي العصر الوسيط يبدأ العصر الحديث مع فترة أنتقالية بينهما تضاف لرصيد التاريخ الحديث هي ما يطلق عليها عصر النهضة Renaisance.

ومازلنا نعيش جميعا هذا العصر، لكن الأحداث المعاصرة أو الموجودة الآن غالبا ما لا تكون موضوعا للدراسات الأكاديمية في التاريخ لأنه كما سبق القول يتعين على الباحث التاريخي الأكاديمي ألا يختار موضوعا لبحثه إلا إذا توفر لديه جانب مهم من الوثائق ولقد جرى العرف في دور الوثائق ألا يفرج عنها أو تكون مشاعا بين أيدي الباحثين إلا بعد خمسين سنة على الأقل، كما أن مرور فترة زمنية معقولة يجعل أبعاد الموضوع تتضح ويجعل الباحث أكثر قدرة على الحياد.

ويبدأ العصر الحديث باجماع عدد كبير من المؤرخين منذ سقوط القسطنطينية على يد محمد الفاتح سنة ١٤٥٣. ذلك الحدث الرهيب الذي قرعت من أجله الكنائس أجراسها. وبداية التاريخ الحديث بهذا الحدث الديني الضخم، يدفع الدعوى القائلة بأن الدين لم يعد محركا للأحداث في العصر الحديث، فواقع الأمر أن الإسلام يشكل عاملا من عوامل الحقد التاريخي ضد العَرَب والمسلمين، ولقد كان لطبيعة فتح القسطنطينية ما يؤكد ذلك. وأحداث التاريخ، كما تؤكد للمرة الألف، لا تموت وإنما هي في الضمائر والقلوب والشعور واللاشعور، تؤثر في الإنسان والحضارة، وتحرك المشاعر واعية وغير واعية.

لقد ظهر الجيش العثماني أمام أسوار القسطنطينية تحوطه دعوات العلماء وابتهالاتهم، وكانت الروح الدينية غالبة على الجند الذين كانوا يعتقدون أنهم يؤدون واجباً مقدسا، ولقد كانت المعارك تبدأ بصلاة السلطان، وكان الجيش كله يصلي، ورفض الامبراطور البيزنطي التسليم أكثر من مرة مما دعا محمد الفاتح السلطان الشاب (٢٢ سنة) إلى التوجه بجيشه قائلا «لقد وقفت هذه المدينة أعواما طوالا في وجه الإسلام وتحالفت مع أعدائه.. لذلك فهي مباحة لكم..» وبعد يوم واحد كانت المدينة في أيدي المسلمين، وعندما انتصف النهار دخل محمد الفاتح المدينة يمتطي صهوة جواده واتجه إلى الكنيسة الكبيرة (أيا صوفيا) ونزل عن جواده أمام بابها وعفر رأسه بالتراب تواضعا وشكرا لله وقابله رجال الكنيسة فأمنهم، ثم أشار إلى من أذن للصلاة فأذن لأول مرة في هذه الكنيسة الفخمة ضخمة الرمز، ومن يومها أصبحت مسجدا من أكبر

مساجد الإسلام . لقد كان مطلع العصر الحديث هو «الله اكبر» تدوي في إحدى الكنائس أيمكن أن ينُسى ذلك؟ أيمكن ألا يكون هذا حقدا في صدور الأفراد وفي باطن الحضارة الأوروبية الحديثة؟ لا أظن. إن كان الدين قد اختفي ظاهرا أو تعمدت القوى المحركة والمؤثرة في التاريخ الحديث أن تخفيه إلا أنه كامن خلف أحداث كثيرة.

من أهم الأحداث والسمات الحضارية للتاريخ الحديث:

نمو وسائل الاتصال، وفيض المعرفة البشرية :

نمو وسائل الاتصال، نقلا وهاتفا وبرقا ومذياعا وتلفازا، ووكالات أنباء وصحافة ونمو مخزون المعرفة البشرى، وتنظيم المعلومات، واكتشاف أهميتها في رسم السياسة ووضع الاستراتيجية، وتصميم الاختراعات.. كل ذلك من سمات العصر الحديث. وكل ذلك شكل حياة الانسان وصاغها وجعل فيضا من المعلومات يهبط عليه وينهال. مما يجعله حائرا حينا، بين الحقيقة والضلال وبين الخبر الصادق، والخبر الموجه. لكن تطور وسائل الاتصال، وفيض المعلومات ليس شرا كله بطبيعة الحال، وإنما أسهمت وسائل الاتصال، وفيض المعلومات في تعميق فكر الانسان وتأصيله وتعميق تطبيقاته التكنولوجية. لقد بدأت هذه الثورة العلمية والاتصالية في القرن التاسع عشر، ثم تطورت تطورا مذهلا بعد ذلك.

ففي سنة ١٨٧٦ اخترع جراهام بل آلة التليفون محققا بذلك تكنولوجيا فكرة إرسال الصوت الانساني على مسافات بعيدة تبلغ محيط الكرة الأرضية. ونتج عن ذلك تطبيقات هائلة في مجال تكنولوجيا الاتصال وطبقت مبادىء بل العلمية في مجال الراديو والسينما والتليفزيون وآلات تسجيل الصوت.

وفي سنة ١٨٧٩ أضاء لنا أديسون عالمنا، وساهم هو نفسه في تطوير وسائل الاتصال بالصورة سنة ١٨٨٩ وصناعة السينما اليوم والفيلم الذي تستخدمه – وإن تطورت جميعا على نحو أو آخر – إلا أنها جميعا في الأساس من أفكار أديسون.

وفي سنة ١٨٩٣ تم تسيير أول سيارة باحدى مدن ماساشوستيس بموتور احتراق داخلي بفضل جهود تشارلز دوريا وأخيه فرانك دوريا.

وفي سنة ١٩٠١ نجح ماركوني في إرسال رسالة لاسلكية عبر الأطلنطي ومن يومها أصبح للاسلكي استخدامه في الحرب والسلم.

وفي أواخر القرن التاسع عشر أيضا كانت بحوث الأخوين رايت لتصميم طائرة تطير بسهولة وتمت هذه البحوث بنجاح سنة ١٩٠٣.

وفي أواخر القرن التاسع عشر وبدايات العشرين كانت بحوث اينشتين عن النسبية تلك البحوث التي نشرت سنة ١٩٠٥ وكان لها تطبيقاتها فيما بعد.

الكشوف الجغرافية :

وفى التاريخ الحديث، لم يعد جزء من المعمورة غير مطروق، بل لقد امتدت جهود الإنسان الكشفية إلى الفضاء.. لقد اكتشف كولومبس العالم الجديد في مطلع التاريخ الحديث سنة ١٤٩٢، تلك الفكرة التي راودته وألحت عليه منذ سنة ١٤٦٤، وفي التاريخ الحديث انحسمت قضية كروية الأرض عمليا عندما وصلت سفن ماجلان إلى سانلوكر جنوب شرقي أسبانيا في سبتمبر ١٥٢٢ بعد رحلة طويلة جريئة شاقة بدأت قبل ذلك بثلاث سنوات أي سنة ١٥١٩. وفي مطلع القرن العشرين وصل روبرت أدون بيرى إلى القطب الشمالي سنة ١٩٠٩ وقدم لنا معلومات كثيرة عنه. وشهد العصر الحديث اكتشاف قارة افريقيا على يد مكتشفين عظماء : سليم قبطان المصرى، سبيك، لفنجستون، بارك..... الخ[١]

حركات الاستقلال:

شهد التاريخ الحديث حركة استعمارية قوية، كما شهد أيضا استقلال دول كثيرة، ففي الستينات من القرن العشرين حصلت معظم الدول الافريقية على استقلالها. وفي التاريخ الحديث أيضا صدر الاعلان الرسمي باستقلال الولايات المتحدة عن بريطانيا وذلك في مؤتمر عقد في فيلادلفيا سنة ١٧٧٦، وتحقق الاستقلال فعلا سنة ١٧٨١.

---

(١) Nisenson, Samuel, William A. De. Witt. Histoos 100 Greatest events. N. Y., Grosset & Dunlap, 1954. P.P. 70- 110.

إلغاء الرق والنزوع للتحرير :

بصرف النظر عن الدوافع الحقيقية التي جعلت الدول الأوروبية، والولايات المتحدة فيما بعد تطالب بالغاء الرق وتحرير الإنسان من ربقة أخيه الإنسان، إلا أن هذه النزعة الإنسانية ضد الرق تعد ظاهريا على الأقل من أنبل النزعات الإنسانية في العصر الحديث.

لقد حرمت الدول الأوروبية باتفاقات بينها تجارة الرقيق منذ منتصف القرن التاسع عشر، وأصدر الرئيس الأمريكي إبراهام لنكولن في أغسطس ١٨٦٢ إعلانا للتحرير عرف باسم وثيقة التحرير، تنص هذه الوثيقة على منع استرقاق الزنوج.

وهكذا انتهي الاسترقاق رسميا ولم تبق منه إلا بؤر يسيرة في بعض أنحاء العالم.

بداية استغلال البترول كمصدر للطاقة استغلالاً تجارياً واسعا:

اعتبارا من سنة ١٨٥٩ بدأ العالم يلتفت التفاتا جديدا للبترول كمصدر من مصادر الطاقة بديلا عن الفحم والكهرباء المولدة من المساقط المائية. لقد كان أول بئر يتم استغلاله تجاريا في الولايات المتحدة قام بحفره الكولونيل ادوارد دريك أما في الشرق الأوسط فكانت البداية في مصر ١٨٦٩ حيث حفر بئر بالقرب من جمصة وزاد الانتاج وأخذ الطابع التجاري سنة ١٩٠٩ ثم توالت الكشوف البترولية في إيران ١٩٠٢ وصدرت أول شحنه بترول ايرانية سنة ١٩١٢ و١٩٢٧ في العراق و١٩٣٣ في المملكة العربية السعودية وتم اكتشاف بئر هام في الدمام سنة ١٩٣٦ وكانت بدايات النفط في البحرين ١٩٣٢ واكتشف النفط الكويتي في برقان سنة ١٩٣٨ وفي نفس العام دخلت قطر عصر النفط.

التاريخ علم حي :

التاريخ، بأعماقه الضاربة في القدم، مازال حيا بين ظهرانينا، يؤثر فينا بل ونؤثر فيه. لقد جنح بعض المثقفين للأسف إلى اعتبار التاريخ علما ميتا، وإلى اعتبار المهتمين به ممن ينحون نحوا هروبيا، متلمسين من أحداث التاريخ الماضية، ذريعة للهروب من الواقع.

وليس أدل على عدم صحة ذلك من أن الحضارة الفرعونية التي بدأت قبل ثلاثة آلاف سنة قبل الميلاد، ما يزال يستغلها دعاة فصل مصر عن العرب، بدعوى الفرعونية، إنهم يتخذون من

أحداث ووقائع وحضارة مرت عليها هذه العهود السحيقة نريعة لينزعوا مصر من واقعها المسلم العربي. أليس هذا دليلا على أن التاريخ بين ظهرانينا حي يؤثر فينا، بل ويعمد البعض إلى تزييفه وتوجيهه غير وجهته فكأنهم يؤثرون فيه

وهل يمكن فهم الثورة الارترية (١٩٦١) دون الرجوع إلى اعتداء الحبشة على النظام الفيدرالي الذي قررته الأمم المتحدة كصيغة للاتحاد بين أرتريا والحبشة ١٩٥٠؟ وهل يمكن فهم الحقد الحبشي المسيحي ضد الأرتريين والمسلمين دون الرجوع إلى أوضاع المسلمين في الحبشة، أو دون الرجوع إلى أحداث الامبراطور الشهيد ليج اياسو، الامبراطور الحبشي الشرعي المسلم واعتداء هيلاسلاسي على هذه الشرعية؟

وهل يمكن فهم الهزيمة في سنة ١٩٦٧ دون معرفة مسبباتها الضاربة عمقا في التاريخ قبل ذلك بأكثر من عشر سنين؟

إن الأحداث التاريخية لا تنبثق هكذا انبثاق الفجاءة، وإنما لابد لها من مقدمات تاريخية.

بل إن بعض عصور الإحياء والتنوير، تعتمد اساسا على إحياء ثقافة قديمة، فعصر النهضة الأوروبية اعتمد من بين ما اعتمد على إحياء الآداب الكلاسية.. وحركة ابن عبد الوهاب كانت تعتمد أساسا على العودة بالإسلام إلى عصر نقائه الأول.. نخلص من هذا إلى حقيقتين أساسيتين:

١ - إن تقسيم التاريخ إلى عصور أو مراحل لا يعني أن كل مرحلة أو عصر يأتي ليجب أو ليلغي أو لينهي العصر السابق إلغاء لا عودة بعده، أو يقبره قبرا لا حراك بعده، وإنما التاريخ متتابع متماسك متصل بعصوره القديمة والوسيطة والحديثة، ويقرونه السابقة على الميلاد واللاحقة حتى يومنا هذا، بل ساعتنا تلك.

٢ - إن التاريخ مازال يؤثر فينا، ومازال حيا، وبالتالي فهو علم حي.

أمناطق بلا تاريخ؟

ذهب بعض الباحثين الأوروبيين إلى أن سكان أفريقيا السوداء ليس لهم تاريخ يسبق قدوم

الاستعمار الأوروبي، وهو قول غير صحيح[1]. فعلى سبيل المثال نجد أنه قبل وصول البرتغاليين إلى خليج غانا سنة ١٤٧١[2]، كان للسكان الوطنيين في المنطقة التي عرفت فيما بعد باسم غانا، ثقافتهم الوطنية التي لم تغب لحظة حتى بعد تشربهم للثقافة الأوروبية واندراجهم في سلم التعليم على النمط الغربي، فلقد برعت جماعات زنوج غرب أفريقية في الفنون التشكيلية، وعلى الرغم من أن فنونهم يمكن اعتبارها فنونا زنجية خالصة إلا أن التأثير الأوروبي - والبرتغالي على نحو خاص - يبدو فيها واضحا.

كما أن غرب أفريقية لم يكن منعزلاً عن التأثيرات الحضارية طوال عصور التاريخ فلقد ذهب كثير من الباحثين إلى انتقال تأثيرات حضارية فرعونية إلى غرب أفريقيا، ولقد ظل سكان غرب القارة الافريقية يحملون هذه التأثيرات الفرعونية حتى القرن العشرين[3].

كانت هذه مقدمة لابد منها، ليكون لنا المبرر الكافي في الاختلاف رأيا مع ج.ل. مايرز في كتابه فجر التاريخ إذ جعل فصله الأول بعنوان: الشعوب التي لا تاريخ لها. يقول مايرز «التاريخ كله - إذن - هو سجل كفاح الانسان مع الطبيعة ومع غيره من الناس. ولكنا رأينا من قبل أنه ليست كل الأعمال التي قام بها البشر تعتبر تاريخا - بالمعنى الضيق والشائع. وهناك شعوب.. أو بعبارة أدق هناك جماعات من الناس ليس لهم تاريخ بالمعنى المتقدم. وفي وسعنا أن ندرك إدراكا أوضح ماهية التاريخ وكيفية إضفاء الصفة التاريخية على أعمال الشعوب إذا نحن ألقينا نظرة على أمثلة مستمدة من الشعوب غير ذات التاريخ. وليس علينا إلا أن نلقي نظرة على نموذج الكرة الأرضية أو على خريطة للعالم لندرك أن كل المؤرخين في الواقع قصروا همهم على مناطق صغيرة جدا من العالم.

إن تسعة أعشار كتب التاريخ تعني بأعمال الأمم الأوروبية والمهاجرين من أوروبا. ويعنى

---

(١) يميتم Crowder, j. West Africa under colonial rule. London, 1968. pp. 10تم

(٢) Davidson, B. : Old AFrica redis-covered. p. 165.

(٣) Seligman. C. : Egypt and Negro Africa PP.8-13

shinnie, M.: Ancient African Kingdoms. N.D, p.13

Church, R.: West Africa. London, Longmans, 1966, p.137

(٢) مايرز، ج.ل: فجر التاريخ. ترجمة طلي عزت الأنصاري. مراجعة د. عبد العزيز كامل. القاهرة. مركز كتب الشرق الأوسط. ١٩٦٢. ص١٧ - ٢١.

معظم كتب العشر الباقي بأقاليم قليلة غير أوربية كمصر وأشور وبابل والهند والصين، واليابان (حديثا) وفي الوقت نفسه هناك مساحات شاسعة لم تكتب عنها أية مؤلفات تاريخية. والسبب واضح إذ ليس فيها أعمال بشرية تدعو المؤرخ إلى اتخاذها موضوعا لكتابته....»[٢]

والواقع أن هذا الكلام غير صحيح في جملته. فحيثما يوجد الانسان يوجد التاريخ. فإذا وجد الانسان، فانه يسعي وراء بقائه حيا، وهو يحب ويكره ويخاصم ويتحالف، ويسالم ويحارب، ويبدع فنا وأدبا وصنعة.. وماذا عساه يكون التاريخ إلا هذا كله؟ العيب إذن في المؤرخين الذين اهتموا بمنطقة دون أخرى بدافع التعصب أو التعاطف أو السهولة؟ كما أن أساليب المؤرخين في كثير من الأحيان كان يعتريها قصور من ندرة وثائق أو انعدامها. وصعوبة اللغات القديمة، وقسوة البيئة الجغرافية التي تحول بين المؤرخ وبين المناطق التي يبغي لها وصولا .. كل ذلك وغيره هو الذي جعل الكتابات عن بعض مناطق أفريقيا قليلة نادرة، بل ومنعدمة أحيانا، بل أن بعض الجماعات البشرية لم نعرف عنها شيئا إلا في هذا القرن العشرين، كجماعات السونا في وسط أمريكا اللاتينية...

إذن، كل البشر لهم تاريخ، والمسألة أن أساليب البحث التاريخي تقصر أحيانا عن الوصول للحقيقة.

العصر والمنهج :

مما سبق يتضح أن لكل عصر سماته الخاصة التي تغلب عليه، والتي تميزه عن غيره من العصور، إلى حد ما، رغم أن العصور التاريخية كلها تتكامل وتتصل ورغم أن التاريخ كله ينساب في مجرى واحد، فيبطيء الجريان حينا، وينساب فيضا حينا آخر، ذلك أن موضوع التاريخ في كل العصور هو الإنسان وما يبذله من جهد خلاق، وما ينفعل به صراعا مع الطبيعة ومع أخيه الإنسان.

كل هذا لا يمنع أن لكل عصر سمته الغالبة التي تسمه، ولكل منطقة طبيعتها التي تلون تاريخها، وتحدد العلوم المساعدة للتاريخ لها، والمنهج الذي ينتهجه الباحث عند الكتابة عنها.

فالمؤرخ لعصر صدر الإسلام، لابد أن يتعمق في طبيعة الاسلام، وتاريخ المعتقد الوثني قبل الاسلام، والمعتقد المسيحي في الجزيرة ومصادره، والمعتقد اليهودي في الجزيرة وطبيعته، وطبيعة العربي الاثنولوجية والانثروبولوجية، فكل ذلك يعينه - أي الباحث - على رصد مدى

التأثير الإسلامي عمقاً واتساعا. وبدون الالمام بذلك كله تأتي الكتابة التاريخية عن صدر الإسلام مسطحة هشة، ليس فيها عمق، ولا تقف أمام نقاش.

والمؤرخ للدولة البيزنطية، لابد له من معرفة كل ما يمكن عن المجامع الكنسية عامة، ومجمع نيقية خاصة (٣٢٥ للميلاد) وطبيعة المعتقد المسيحي وما كان يلم به من لجاج وخلاف وتحزب، وعلاقة هذا التحزب بالخلافات السياسية وموقف الأريوسية خاصة، والخلاف حول طبيعة المسيح عامة.

ويكاد يمتزج تاريخ مصر الفرعونية كله بالمعتقد الديني، فقد كان الملك إلها، وكان التحالف بين الكهنة والملك قائما غالبا، مفقودا أحيانا، متخذا شكل صراع نادرا.

إذن : في التاريخ القديم والتاريخ الوسيط، كان المعتقد الديني يوجه الأحداث ويحركها أو يتخذ ذريعة لها بشكل واضح علني مكشوف.

والباحث في مجال التاريخ القديم مضطر الرجوع لنصوص بلغات قديمة ما عاد لها وجود، وما عاد أحد يتحدث بها، فقد طال عليها الأمد، فانقرضت ولم يبق منها في لغاتنا الحية إلا كلمات قد تصل للمئات، اعتراها تحوير وتبديل. والباحث في مجال التاريخ القديم أمامه إزاء هذه الصعوبة واحد من اتجاهين :

أولهما : أن يعتمد الباحث أو المؤرخ اعتمادا كاملا على ما ينشره الآثاريون أو علماء الآثار، وترجماتهم للنقوش والنصوص القديمة.

ثانيهما : أن يقوم بتعلم اللغة القديمة اللازمة لبحثه، وذلك يستغرق وقتا طويلا، ويتطلب حرصا شديدا، ثم يشرع بعد ذلك في قراءة النصوص بنفسه خاصة تلك التي لم تصل إليها جهود الآثاريين.

والواقع أن مهمة الآثاري تنتهي عند نشر الأثر وتحقيق نسبته لعصره ونشر رسومه ونقوشه، وهذا لا يقلل من أهمية دور المؤرخ، الذي يقوم بكتابة تاريخ كامل من هذه الآثار مستخدما أساليب النقد والتحليل والتصور والتخيل فتتحول مجموعة النصوص والآثار الجافة إلى حياة تنبض، وصورة تنطق.

لكن حقيقة الأمر أن الأثاريين، والاختصاصيين في اللغات القديمة، نظرا لامتلاكهم ناصية أدوات البحث الأساسية قد زاحموا الاختصاصيين في التاريخ، فنحن نجد في أيامنا هذه أن عددا كبيرا جداً من المتخصصين والنابهين في التاريخ القديم، كان اختصاصهم الأساسي في الآثار أو اللغات القديمة.

أما مؤرخو العصر الوسيط الاسلامي، فطبيعة بحوثهم تحتم أن يكون لديهم قدرة على قراءة مراجع التاريخ الإسلامي، وقد يظن الباحث أن المسألة سهلة يسيرة ما دامت هذه المراجع مكتوبة بالعربية، لكن حقيقة الأمر أن لكل عصر مصطلحاته الخاصة، ووظائفه الخاصة، بل ولغته الخاصة.. والتعود على ذلك كله في حاجة إلى إدامة النظر في هذه المراجع، حتى يألفها وتألفه إن صح هذا التعبير، وهذا يستلزم من الباحث كثرة الرجوع للقواميس، وتفهم لغة العصر، ومعرفة التيارات الدينية السائدة.

فاذا ما انتقلنا إلى التاريخ الحديث المسبوق بعصر النهضة، وجدنا أن معظم مؤرخي عصر النهضة نوو ولوع بالفن، نحته ورسمه وأدبه، ومناهج التفكير العلمي.. فتلك كانت طبيعة عصر النهضة الأوروبية، ومعرفة شيء من ذلك يتوقف عليها عمق وأصالة ما يكتبه الباحث.

أما التاريخ الحديث فقد سبق أن أشرنا إلى أهم سماته من فيض المعلومات وكثرة الإبداعات والاكتشافات العلمية واتساع نشاط وسائل الاعلام وقوى الضغط على ذهن الإنسان، وتلك لها جانباها السلبي والإيجابي أما الإيجابي فهو كثرة المعلومات والمتوفرة في كثير من الموضوعات، وأما السلبي فهو تناقض هذه المعلومات وفقا لجهات بثها أو نشرها مما يستدعي من الباحث يقظة وحذرا. ومن الضروري أن يلم الباحث بلغة الوثائق أو المراجع الخاصة بموضوعه، خاصة وأنها لغات حية تعلمها ليس بنفس صعوبة تعلم اللغات القديمة أو المنقرضة.